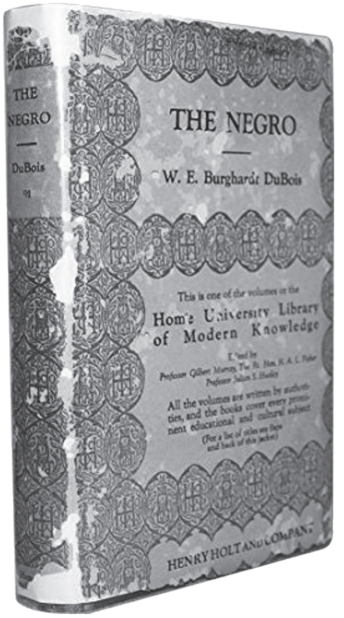

محمد قعدان *

قراءة في كتاب «الزنجي»**: دو بويس واستعادة تاريخ إفريقيا

توطئة

يتجسّد الجهد الذي رافق دو بويس (Du Bois, W.E.B) في هذا الكتاب في الإجابة عن سؤال «من هو الزنجيّ؟»، إلا أن هذهِ الإجابة تشكّلت في نسقٍ مغاير عن الكتابات التاريخيّة الدارجة والمألوفة إزاء العوالم غير الأوروبيّة، فهي صاغت نموذجا حديثا من الكتابة النقديّة، منطلقا من تاريخِ الزنوج أو السود في إفريقيا، حتى تاريخهم الحاضر في الأميركيتيّن، وتميّزت الكتابة النقديّة عند دو بويس، بكونها بمثابة «كشف الحجاب» عن تاريخ السود، فيما يتعلّق بمأساتهم في مخطّط العالم الحديث، مع مأساة شعوب مستعمَرة أخرى، أو كما أسماهم دو بويس «الملوّنين».

مع بداية القرن العشرين، وفي عامِ ١٩١٥ تحديدًا، نُشر الكتاب في ظلّ تجذّر الإمبراطوريّات الاستعماريّة في العالم، وكثافةِ الكتابات والأدبيّات الاستشراقيّة وهيمنتها على الأجواء الأكاديميّة والعلميّة، برزَ دو بويس في نقدهِ المستمرّ ودائم التطوّر، للمشاريع والتقاليد المعرفيّة التي تكرّس العنصريّة والاستعمار، علمًا أنه في تلك الفترة نجد قليلا من الذي قاموا بنقدِ هذهِ المشاريع ومضامينها، في الولايات المتحدّة كانوا يُسمون «العُشر الموهوب» ومنهم أرشيبالد غريم وكيلي ميلر وجيمس ويلدون جونسون وبول لورنس دنبار، يعبّرون بدورهم عن نخبة مثقفة سوداء، تقود

* طالب جامعي متخصص في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وتاريخ الشرق الأوسط في جامعة تل أبيب.

** Du Bois, W.E.B. The Negro. New York: Holt, 1915. (والكتاب منشور من ٢٠١١ على موقع Project Gutenberg)

يكمن في كتاب «الزنجي» همّ وقلق يمهّدان لسؤالِه المعرفيّ وهو يتعلّق بوحدة مصير الزنوج الأفارقة، والعمل على وحدة إفريقيا كمشروعٍ سياسيّ، من خلال استعادة التاريخ العامّ للقارّة. ودحضَ الكتاب، ادعاءات الدونية الإفريقية، وأيضًا حاول الكشف عن الفاعليّة التاريخيّة، ناقداً بدورِه مقولة «إفريقيا ليس لها تاريخ».

معرفياً وسياسياً واجتماعياً، نقد المشروع الاستعماريّ في الولايات المتحدّة، ثمّ تكثّف النقد ليصل المنظومة العالميّة بأكملها، التي تستهدف أساسا الشعوب غير الأوروبيّة.

ويأتي هذا الكتاب بعدما نشرَ دو بويس كتابه «أرواح الشعب الأسود»، في عام ١٩٠٣، الذي أوضحَ فيهِ بشكلٍ حاسم أن المُشكلة الراهنة في القرن العشرين، هي خط اللون أو حدّ اللون (Color line) الفاصل بينَ الشعوب البيضاء والشعوب غير البيضاء، وهذا الخطّ يحملُ في طيّاتهِ معاني سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وقانونيّة، لتعريف من يحقّ لهُ العيش، ومن لا يحقّ لهُ العيش، ليس بالمعنى المجازي فقط وإنما بالمعنى الحرفيّ أحياناً، على نطاق عالميّ.[1]

ويكمن في كتاب «الزنجي» همّ وقلق يمهّدان لسؤالِه المعرفيّ وهو يتعلّق بوحدة مصير الزنوج الأفارقة، والعمل على وحدة إفريقيا كمشروعٍ سياسيّ، من خلال استعادة التاريخ العامّ للقارّة الإفريقية. ودحضَ الكتاب، ادعاءات الدونية الإفريقية، وأيضًا حاول الكشف عن الفاعليّة التاريخيّة في إفريقيا، ناقداً بدورِه مقولة «إفريقيا ليس لها تاريخ»، ونظر الكتاب في جذور وأسباب هذهِ المقولة تاريخياً، وأشار إلى أنها نابعة من الاستعباد والاستنزاف لإفريقيا على امتداد أربعة قرون متتالية منذُ القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر، وبالتالي أصبح الكتاب بمثابة مرجع للتأريخ الإفريقي في القرن العشرين المُضادّ للمعرفة الأورومركزيّة والاستشراقيّة إزاء الشعوب غير الأوروبيّة عمومًا. وسأتناول في مراجعتي فصول الكتاب، من خلال الثيمات التي يتبعها دو بويس في الكتاب.

البداية: استيعاب إفريقيا والشعوب السوداء

يفتتحُ دو بويس الكتاب، بفصلٍ يمهّد للحديث عن إفريقيا، عبر نزع «الرومانسيّات والغموض» عن القارّة، بالتعرّف عليها جغرافياً. فهو يعيد القارئ إلى الواقع فيما يخصّ إفريقيا، والشعوب السوداء. وهي أيضًا محاولة لاستعادة الجغرافيا ونزع الصفات الاستعماريّة عنها، واستيعابها كمشهدٍ جغرافيّ طبوغرافيّ وبيئي، وبالتالي تملك مقوّمات الحياة كما أي قارّة أخرى.[2]

في الكتاب محاولة لاستيعاب إفريقيا والشعوب السوداء من أجل اعتبارهم فاعلين في التاريخ، ومساهمين في تشكّل حضارة في القارّة الإفريقية وبلدان شرق المتوسّط وشبه الجزيرة العربيّة. وتأتي محاولة دو بويس هذهِ، في سياق تحليل وتفكيك «الدونيّة الإفريقية» التي أنتجتها تجارة العبيد والاستعمار، من خلال إعادة قراءة التاريخ واستعادتهِ من عنصرية تقاليد التأريخ والفلسفة الأوروبية، فيما يتعلّق بموقعِ إفريقيا في التاريخ، والنظر على أنها قارة هامشيّة غير متحضّرة.[3]

ونرى أن دو بويس يكرّر في الكتاب السؤال «من هو الزنجيّ إذًا؟»، مخترقًا النماذج العرقيّة والعنصريّة، متسائلًا، هل من الممكن تحديد مقاييس عرقيّة للزنجيّ، كما يتخيّلها البعض «الرجل الأسود القبيح ذو الشعر المجعّد»، وهل من الممكن حصر عرق أو شعب في مفاهيم بيولوجيّة وفيزيائيّة؟ ويطرح السؤال الأساسي في هذا السياق وهو: كيف أصبح اللون علامة للدونيّة في العالم الحديث، مؤكدًا على أن هذهِ سِمات العالم الحديث، من خلال استحضار سلسلة من الشواهد والأدلة والآثار في إفريقيا. يضعُ دو بويس هذه القاعدة في التعاطي مع «العرق» قائلًا أن «العرق هو مفهوم ديناميكي وليس ثابتًا، والأجناس النموذجية تتغير وتتطور باستمرار وتندمج وتتمايز». وبالتالي النظر إلى

يسردُ لنا دو بويس تخطيط المسار الحضاريّ والثقافيّ، وموقع الشعوب السوداء في صناعةِ تاريخ إفريقيا وإمبراطوريّات المتوسط عمومًا. ويتعمّق في كلّ منطقةٍ إفريقية وتطوّراتها الداخليّة والخارجيّة سواء مع «الفتوحات العربيّة الإسلاميّة» أو الإمبراطوريّات المجاورة، وما آلت عليهِ أحوالها من خلال التشديد على فهمِ أربعة مراكز إفريقية؛ مصر وأثيوبيا، ثمّ السودان والنيجر وتشاد وغانا، ثمّ الكونغو ووسط إفريقيا.

العرق بوصفهِ نموذجا ثابتا من اللون الأسود الداكن والشعر المجعّد ليست إلا تعميمًا أوروبيًا في سياقٍ تاريخيّ، إنما الأفارقة والشعوب السوداء تختلفُ ألوانها من الأسود الداكن حتى اللون البنيّ الفاتح والأصفر، وأمّا الشعر والشفاه والرأس والجسم، يتمايزون مع الاختلافات الجغرافيّة في إفريقيا. وأوردَ دو بويس النقاش العنصريّ في أوروبا الذي يتمحور حول محاولة لتثبيت تعريف موحّد وقاطع للسود من خلال ملامحهم الجسديّة، ويبيّن دو بويس كيف أنه لم يحالفهم الحظّ «علميًا» في توحيد إفريقيا تحت تعريف عرقيّ واحد.[4]

وعليه، يحاول دو بويس الإسهام في دراسة تاريخ الشعوب السوداء، وفهم الديناميكيات التاريخيّة التي أدت لتكوّن إفريقيا والشعوب السوداء، منطلقًا من الجذور والأصول، ليناقش فاعليّة هذهِ الشعوب في التاريخ وإمكاناتهم الحقيقيّة كبشر. ظهرت ثلاثة أنواع من «الزنجيّ التاريخيّ» في منطقةِ وادي النيل ثم بدأت بالتوّسع نحو الجنوب الإفريقي، حسب دو بويس. ويعتقد أن هذهِ العمليّة تتضمن اختلاط الشعوب السوداء بمن يسميهم بشعوبٍ ساميّة، ومن هنا تطوّرت حضارة مصر وأثيوبيا القديمة لتكون بداية الشعوب السوداء بالمعنى التاريخيّ، وأيضًا بداية حضارة إنسانيّة. ويصفُ دو بويس محاولتهِ هذهِ لفهمِ تاريخ الشعوب السوداء بقوله: «ليس من السهل تلخيص تاريخ هذه الشعوب الإفريقية السوداء، لأنه لا يُعرف عنها إلا القليل، والكثير لا يزال محل نزاع ونقاش. مع ذلك، من خلال تجنّب الخلافات الحقيقية وعدم الخوف من مجرد طرح الأسئلة، قد نتتبع حركة إنسانية عظيمة بدقة كبيرة». ويتبيّن أن طرحه التاريخيّ سيكون بمثابةِ تقديم تعريفات أساسيّة حول الشعوب السوداء، كبديل عما تقدّمه النُظم والأجهزة المعرفيّة التابعة للاستعمار والامبرياليّة الأورو-أميركيّة.

ويتابع دو بويس موضحًا أنه مع توسّع القبائل الزنجيّة في داخل إفريقيا بدأت تستقرّ في مناطق مهمّة وحيويّة في منطقة تشاد ونهرها وزيمبابوي والجنوب الإفريقي. كذلك، استقروا تدريجيًا في الجنوب الشرقي، وأطلقوا على أنفسهم «الشعب» باللفظ اللغويّ (La Bantu)، وقد نما هذا المفهوم من خلال تكتل القبائل وتحوّلها إلى «أمة مُحاربة» تتحدث لغة واحدة، ولم يستقرّوا نهائيًا حتى قاموا في النهاية بغزو كل إفريقيا.

أحدثت هذهِ الهجرات، تحوّلات وتغيّرات بطيئة في إفريقيا وأصبحت «أرض الزنوج» (Negroland)، ونتجَ عن ذلك علاقات مع الخارج- مع العالم، تجارة وحركة وتقدّم، من خلال بوابّة منطقة النيل ومصر. ومن المهمّ النظر إلى أن مصر هي نتاج هذهِ العمليّة التي أطلقتها القبائل السوداء، وأيضًا تواصلت الشعوب الفينيقية واليونانية والرومانية، بشكل أو بآخر، مع إفريقيا السوداء. واعتبرت قرطاج، المدينة المركزيّة الواقعة في شمال إفريقيا التي يبلغ عدد سكانها مليون نسمة في تلك الفترة قبل الميلاد بعدّة قرون، قناة أساسيّة لتجارة ومرور قوافل كبيرة تحمل العاج والمعادن والقماش والأحجار الكريمة والعبيد.

ويضيف دو بويس أن إفريقيا ارتبطت وساهمت وتأثرت بالعالم الجديد، مع بداية الميلاد. وجاءت التأثيرات اليونانية والرومانية عبر الصحراء، وتواصلت الإمبراطورية البيزنطية وبلاد فارس مع إفريقيا عبر وادي النيل. وأدى تأثير طرق التجارة في الصحراء بالإضافة إلى تلك الموجودة في مصر وأثيوبيا وبنين ويوروبا(نيجيريا)، إلى تحفيز المراكز الثقافية في وسط وغرب السودان، ووصلت التجارة الأوروبية والإفريقية إلى حجم كبير في وقت مبكر.[5]

يسردُ لنا دو بويس تخطيط المسار الحضاريّ والثقافيّ، وموقع الشعوب السوداء في صناعةِ تاريخ

إفريقيا وإمبراطوريّات المتوسط عمومًا. ويتعمّق في كلّ منطقةٍ إفريقية وتطوّراتها الداخليّة والخارجيّة سواء مع «الفتوحات العربيّة الإسلاميّة» أو الإمبراطوريّات المجاورة، وما آلت عليهِ أحوالها من خلال التشديد على فهمِ أربعة مراكز إفريقية؛ مصر وأثيوبيا، ثمّ السودان والنيجر وتشاد وغانا، ثمّ الكونغو ووسط إفريقيا، وينتهي بالحديث عن الأنهر الكبيرة وزيمبابوي. ويبيّن أهميّتها وفاعليّتها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، ناقدًا، النظريّة التي تبلورت مع استنزاف القارّة الإفريقية منذ القرن الخامس عشر ومفادها أن السود كانوا دائمًا عبيدًا في التاريخ وغير فاعلين فيه.

تأتي مهمّة الكتاب في سياق الكشف عن محدّدات أو مميّزات تاريخيّة وسوسيولوجيّة لعمليّة «استعباد إفريقيا»، التي بدأت في القرن الخامس عشر، وكيف تختلف عن «العبوديّة الكلاسيكيّة»، وما هو المضمون لخطّ أو حدّ اللون؟

قراءات في التاريخ الإفريقي

لكي نعي أجوبة دو بويس عن هذهِ الأسئلة، نعود معه قليلًا إلى قراءات في تاريخ إفريقيا بدورها حضارةً فاعلة في التاريخ من فترات ما قبل الميلاد وما بعدهُ؛ يعتبر دو بويس أن مصر وأثيوبيا هما البوابة التاريخيّة لإفريقيا ونهضتها، ويستعرض تاريخًا قبل ميلاد المسيح بخمسة آلاف سنة أو أكثر.

بدأ دو بويس قراءته للتاريخِ الإفريقي من بوّابتها الشماليّة، حيث تقع مصر، التي يسميها «منشأ الثقافة والفنّ» عبر تطوّرات طويلة من الفترة القديمة. لافتًا إلى أن تشكّل المنطقة في شمال إفريقيا مرّ من خلال ثلاث إمبراطوريات مصرية متعاقبة في فترةٍ تمتدّ إلى ألفيّ عام تقريبًا، إلى أن انهارت الإمبراطورية إلى نصفين؛ مصري وأثيوبي. ويرى دو بويس أن التدّفق الواسع للقبائل الزنجيّة والشعوب السوداء، بدأ في هذهِ الفترة تحديدًا بعد الانهيار، وقامت عليها النهضةً المصريّة الإفريقية القديمة، وتركت وراءها حضارةً مهمّة وآثارا تاريخيّة، وضرب مثالًا على ذلك «تمثال أبو الهول العظيم في الجيزة، وأبو الهول في تانيس، والتمثال من الفيوم، وتمثال الإسكويلين في روما، وتمثال بوباستيس، جميعها تجسّد زنوجًا سودًا»، وتعبّر التماثيل عن مركزيّة الفعل التاريخيّ للسود ونهضتهم القديمة. وقد جاء في وصفها من قبل دو بويس أن «تعابير وجوههم صارمة وشبه وحشية تعبّر عن القوة».

استكمالًا في قراءة هذهِ الفترة، كانت أثيوبيا، بمثابة درع حماية لهذهِ الحضارة، من قبل غزوات قبائل أخرى في شمال إفريقيا، مناطق «المغرب العربيّ» تحديدًا. وبعدما بدأت الامبراطورية المصريّة بالانهيار، ظهرت على إثر الدور الأثيوبي في حماية هذهِ الامبراطوريّة، ثقافة أثيوبية منفصلة ومستقلة، ونشأت مملكة «كوش» وعاصمتها «مروي» في هذهِ المنطقة، متضمنة مناطق من السودان، ونشأت تجارة واسعة النطاق من الذهب والعاج والأحجار الكريمة والجلود والأخشاب والحرف اليدوية. وأصبحت أثيوبيا ملاذًا ماديًا وثقافيًا لمصر. نمت هذهِ المملكة من خلال المراكمة على التطوّر والنهضة المصريّة التي سبقتها. كانت هذه نقطة فارقة في تاريخ مصر وأثيوبيا، فتمازج الأحداث والثقافة والتشكيلات المادّية، أسّس لوحدة سياسيّة، ولبداية حضارة.

وفي هذا الخصوص يبيّن دو بويس أهميّة هذهِ المنطقة في إفريقيا بالنسبة لتطوّر وتشكّل إفريقيا السوداء كما نعرفها اليوم، ونهوضها قديمًا. وهو يعتمد على دراساتٍ أركيولوجيّة وتاريخيّة، ويعيدها لتصبح جزءًا من السرد التاريخيّ العامّ لإفريقيا. مكّنه هذا من فهم واستيعاب إفريقيا كجُزء من التاريخ الإنسانيّ، إلى أن يصل لفترة قريبة قبل الميلاد (٥٠٠-٦٠٠ عام)، إذ بدأت تظهر ملامح سقوط هذهِ الحضارة التي شملت كلًا من مصر وأثيوبيا والسودان، بيدِ الأشوريين أو الفارسيين. ويتابع الكاتب سردًا سريعًا إلى أن يصل إلى فترة ما بعد الميلاد، وتحوّل المنطقة إلى المسيحيّة بالتزامن مع ميلاد المرحلة العربيّة الإسلاميّة. وقد حفّز هذا التحوّل حركةً وديناميكيّة جديدة لإفريقيا بعد ركود. ويرى دو بويس أن أثر المسيحيّة ثمّ انتشار الاسلام في سياقها العربيّ، كانَ واسعًا، وساهم في عدّة مجالاتٍ في تطوّر إفريقيا، من خلال الامبراطوريّات أو الكيانات السياسيّة التي نشأت ضمن النسق العربي وامتدادًا للحضارة الإفريقية التي تكوّنت ما قبل الميلاد.[٦]

يطرح دو بويس في الفصل التالي مسألة إفريقيا وقدوم الإسلام، منطلقًا من المصطلح العربيّ «بلاد السود» والمتداول بمصطلح «السودان» وهي تعني أراضي أو بلاد السود، وهي تغطي المنطقة بأكملها جنوب الصحراء، من المحيط الأطلسي إلى النيل. ويشير إلى أن النيجر تلعب دورًا مهمًا في غرب السودان وتطوّرها منذُ

تتجلى النقطة الأساسيّة بخصوص قدوم «العرب والإسلام» في دورهم في إحياء طرق التجارة القديمة واستعادتها، ويرى دو بويس أنهم قدموا كتجّار في المدن الكبرى والمخصصة للتجارة، وتعاملوا بـ«احترام» مع هذه الحضارة السوداء التاريخيّة في إفريقيا وقبائلها وشعوبها. ويشير إلا أن الإسلام لم يؤسس دولًا جديدة، بل دولًا زنجية «معدلة» و«موحدة» قديمة.

قدوم القبائل العربيّة.

في هذا الخصوص، يشير دو بويس إلى أثر الفراعنة المصريين في منطقة السودان في التعريفات الجيوسياسيّة الكلاسيكيّة، ويبين أثر تغلغل الثقافة اليونانية والبيزنطية والتجارة الفينيقية والقرطاجية والتي عُرفت أيضًا بـ«ممالك نوبا المسيحيّة». بينما جعل الإسلام أخيرًا هذه الأرض بأكملها ملكًا للإمبراطورية الإسلاميّة وتوسعها. ومع ذلك، فقد وقفت وراء كل هذه التأثيرات ثقافة الزنوج الأصلية الأولى؛ إن الأشكال الحجرية لـ«شربرو ومغاليث غامبيا وفن وصناعة الساحل الغربي» كلها أدلة عميقة وأصلية للحضارة لا يمكن أن تكون مجرد استيراد من الخارج.

وتتجلى النقطة الأساسيّة بخصوص قدوم «العرب والإسلام» في دورهم في إحياء طرق التجارة القديمة واستعادتها، ويرى دو بويس أنهم قدموا كتجّار في المدن الكبرى والمخصصة للتجارة، وتعاملوا بـ«احترام» مع هذه الحضارة السوداء التاريخيّة في إفريقيا وقبائلها وشعوبها. ويشير إلا أن الإسلام لم يؤسس دولًا جديدة، بل دولًا زنجية «معدلة» و«موحدة» قديمة.

كان الإسلام إذًا المرحلة الثانية تاريخيًا في إحياء إفريقيا، وانخراطها في تشكّل الحضارة العربيّة الإسلاميّة، فقد دفع وحفّز نهوض تقاليد سوداء في الساحل الغربيّ خصوصًا والكونغو ووسط إفريقيا. ويشير دو بويس إلى العديد من الممالك المهمّة في الفترةِ الإسلاميّة، وأيضًا إلى النموّ السكانيّ المتصاعد للقارّة، ودور الأفارقة في الصراعات أو الحروبات القائمة ما بينَ الممالك الإسلاميّة المختلفة أو دورهم في غزو شبه الجزيرة الإيبيرية (أوروبا) تحديدًا.

إضافة إلى ذلك، تطوّرت في إفريقيا ثقافات مدنيّة وكيانات سياسيّة سوداء، على سبيل المثال مدينة بنين، والساحل الغربي عمومًا حمل طابعًا قريبًا من «ديمقراطية المدينة»، والأفكار الدينية المتقدّمة، والصناعات المنظمة بدقة، والفن، كما هناك أيضًا دول مثل: أشانتي، داهومي، وغيرها. أظهرت هذهِ «الدول الحديثة» آثارًا للمهارة والثقافة والصناعة، لكن تجارة الرقيق واستعباد إفريقيا هي التي قلبت الميزان.

ويستمرّ دو بويس في عرضِ أهم الممالك وتشكّلات الشعوب السوداء وتقدّمها في الساحل الإفريقي ووسطها وشمالها، إلا أن السؤال يبقى عالقًا: كيف حصل التأخر والسقوط؟ وما هو المميّز في الحرب الأوروبيّة على إفريقيا؟ وبالتالي، يعتبر دو بويس المحاولة الدائمة لإخراج إفريقيا من التاريخ عمليّة تاريخيّة من الاستنزاف الحديث للقارّة ونتيجة استعباد الشعوب السوداء ونقلهم إلى الأميركتين.[7]

المنظومة الاستعماريّة واستعباد إفريقيا

يتساءل دو بويس «ما الذي غيّر مناطق كاملة إفريقية، من ثقافات وتعدديّة وممالك مستقرّة، إلى ميادين حرب ودماء وخراب؟» ويجيب «يمكن أن تكون هناك إجابة واحدة فقط: تجارة الرقيق. ولا أقصد فقط بيع الرجال، وإنما حركة وعمليّة ممنهجة بهذهِ النسب والكثافة والتشعبات المنظمة على نطاق واسع... وتشجيع الحرب وجميع الدوافع القاسية والأنانيّة، وتركيز هذه الحركة على وجه التحديد في جزء من إفريقيا عبر خطوط التجارة المتوسطية القديمة».[8]

يشدد دو بويس على الأهميّة التاريخيّة لقضيّة «استعباد إفريقيا» ويضعها كنقطة فاصلة في تاريخ العالم الحديث وخصوصًا الإفريقي لما يتبيّن أنها أصبحت منذُ القرن الخامس عشر تُستنزف وتضعف وتتأخر، بعدما ظهرت أهم المدن والممالك في إفريقيا سواء التي أخذت دورًا في الحضارة العربيّة الإسلاميّة أو الحضارة السوداء في الساحل الغربي «بنين-يوروبية» (Yoruba-Benin). من منتصف القرن الخامس عشر إلى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، تركزت تجارة الرقيق الأميركية في غينيا ودمّرت الساحل أخلاقيًا

واجتماعيًا وجسديًا ثمّ توسعت. حيث تمّ تداول الأسلحة الأوروبية وغيرها مقابل البشر، ولم يتم اتخاذ أي تدابير لمواجهة هذه الآفة الرهيبة حتى عام ١٧٨٧.

يوضّح دو بويس نقاطا مهمّة في التعاطي مع هذا الحدث الذي أطلقتهُ القوى الاستعماريّة الأوروبيّة بدءا مع مملكة قشتالة والأرغون (إسبانيا) ثمّ البرتغال وتبعتها هولندا، وأخيرًا رسمت إنكلترا الشبكة العالميّة لتجارة الرقيق السود. وفيما يتعلق بهذهِ النقطة تحديدًا، يقول دو بويس إن تجارة الرقيق وعمليّة الاستعباد في أوقات الحرب خصوصًا كانت معروفة ومألوفة لدى الإمبراطوريّات والممالك والدول التاريخيّة، إلا أن التمايز الذي يشير إليهِ الآن متعلّق باللون والعرق. ويعني بذلك أن التمازج ما بينَ الاستعباد وعلامات اللون والعرق كفاصل ومحدّد للإنسانيّة والتاريخ والوجود، وبالتالي التدمير المنهج بسياساتٍ واضحة ومراكز نقل على السواحل في جغرافيات متعددة وسفن وقتل ومحو لشعوبٍ ولغات وثقافات وديانات، كل هذه بدورها هي تمهيد لفهم عمليّة الاستعباد الأوروبيّة. ويقارنها دو بويس مع عمليّة الاستعباد التي جرت خلال الفترة الإسلاميّة، فيقول إنها كانت خلال تلك الفترة «العارض» إبان الحرب، وليس كما في مرحلة الهيمنة الأوروبيّة حيث أصبحت «الهدف» والموضوع الأساسي.[9]

تعكس قراءة دو بويس لمنظومة الاستعباد مجادلته ونقده لمقولة «الشعوب السوداء وإفريقيا بدون تاريخ»، حيث إن المقولة تعني أن الشعوب السوداء لم تحقّق يومًا مصيرها السياديّ على أرض وجغرافيا، وعانت «عنصريّة» بالمعنى «اللا تاريخيّ»، وبالتالي فهي خارج التاريخ. وينتقد اعتبار الاضطهاد والاستعباد ضدّ الشعوب السوداء ظاهرة متواجدة في جميع الحضارات والفترات. انتقد دو بويس ذلك من خلال فهم منظومة الاستعباد كحدثٍ فاصل أولًا، وثانيًا من خلال الكشف عن منظومات وآليات «العنصريّة» ودورها في استعباد إفريقيا، ماديًا ثمّ معرفيًا، وثالثًا من أجل بناء ملامح نظريّة لاستعادةِ التاريخ الإفريقي، ما يتيح إمكانات فاعليّة جديدة للشعوب السوداء في تاريخها الراهن.

ما بين عامي ١٤٥٥ و١٤٩٢ لم يُذكر سوى القليل عن العبيد والتجارة مع إفريقيا. يذكر دو بويس أن كولومبوس قام باقتراح نقل الزنوج إلى الأميركتين، لكن فرديناند وإيزابيلا ملوك إسبانيا، رفضا ذلك واكتفوا بنقلهم إلى المملكة بنسبٍ قليلة. ومع حلول عام ١٥٠١، ظهرت دلالات وإفادات على نقلِ زنوج [الذين اعتنقوا المسيحيّة] إلى الأميركتين. اعترضَ أوفاندو (Ovando)، حاكم أميركا الإسبانية في البداية على نقل العبيد الزنوج، إثر هروبهم وفرارهم وصعوبة تعليمهم، ووصفهم بأن عاداتهم تشبه «العادات السيئة للقبائل الأصلانية». ومع ذلك، ذكرَ دو بويس، رسالة من الملك إلى أوفاندو، [مؤرخة في «سيغوفيا»، في الخامس عشر من أيلول ١٥٠٥]، كتب فيها: «سأرسل المزيد من العبيد الزنوج كما تطلب؛ أعتقد أنه قد يكون هناك مائة. في كل مرة، يذهب معهم أشخاص موثوق بهم، وسيكون لهؤلاء نصيب في الذهب الذي سيجمعه الزنوج». وعقّب دو بويس أن «هناك سجّل من مائة عبد تم إرسالهم في هذا العام بالذات، وتم توثيق نقل خمسين في عام ١٥١٠ من إشبيلية إلى المناجم في أميركا.[10] وهذهِ كانت الخطوات الأولى لإنشاء شبكة عالميّة من استعباد وتجارة الرقيق السود، إلا أنها لم تستهدف السود كـ «استعباد وتجارة» إلا مع البرتغاليين ومن تلاهم.

أصبحت التجارة الأميركية راسخة ونمت تدريجياً، في الربع الأول من القرن السادس عشر، وانتقلت على التوالي من الإسبانيين إلى أيدي البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والإنكليز، من خلال اتفاقيات ومعاهدات. بالتالي أصبحت إفريقيا هدفًا للاستعباد وفقًا لتقاطعات دينيّة، حيثُ يتمّ فرض استبدال الأديان الوثنيّة الإفريقية بالمسيحيّة، وعرقيّة حينما جعلت من الشعوب السوداء موضوعًا للاستعباد الحديث، المرتبط باستعمارِ الأميركتّين.

ويذكر دو بويس أنه بعد ذلك «سرعان ما تطورت التجارة الأميركية للرقيق السود، ونما الطلب القوي غير المنضبط على العمل الوحشي في جزر الهند الغربية وفي قارة أميركا حتى بلغ ذروته في القرن الثامن عشر، عندما كان العبيد الزنوج يعبرون المحيط الأطلسي بمعدّل خمسين إلى مئة ألف سنويًا. بالتالي، استكمالًا للمشروع الاستعماري والهيمنة وبناء أوروبا الحديثة، ترتّب على ذلك، توسيع نطاق الحرب على إفريقيا. وشملت منظومة الاستعباد كل جزء من إفريقيا -على الساحل الغربي والسودان ووسط إفريقيا الكونغو وأثيوبيا ومناطق الأنهر والبحيرات، والساحل الشرقي ومدغشقر. لم يتم الاستيلاء على الإثنيات الصغيرة من الزنوج فحسب، ولكن تم استعباد أهم الإثنيات والشعوب (البانتو الأقوياء والماندينغو والسونغاي والنوبة وزنوج

النيل والفولا وحتى الملايو الآسيويين) في الحرب على إفريقيا».[١١]

قام البرتغاليون ببناء أول حصن لتجارة الرقيق في الميناء على «ساحل الذهب» في خليج غينيا، في أواخر القرن الخامس عشر، ووسعوا تجارتهم على الساحل الغربي وحتى الساحل الشرقي. في ظل هذه التجارة نمت الملامح الأولى لمنظومة استعباد السود بكثافة وبنسبٍ أكبر، ما جعل العبيد السود أهم «سلعة وتجارة» في تلكَ الفترة. وأنشأ الهولنديون مؤسسات وأجسام تنظّم تجارة العبيد، بعد معركتهم من أجل الحرية ضدّ إسبانيا في عام ١٥٧٩، وفي عام ١٥٩٥ وكإجراء حربي ضد إسبانيا -التي كانت في ذلك الوقت تهيمن على البرتغال- قاموا بأول رحلة لهم إلى غينيا لتكثيف تجارة العبيد. وبحلول عام ١٦٢١ استولوا على حصون العبيد المختلفة في البرتغال على الساحل الغربي وشرعوا في فتح ستة عشر حصنًا حديثًا على طول ساحل خليج غينيا.

أبحرت السفن من هولندا إلى إفريقيا وحصلت على عبيد مقابل بضائعها. حملت العبيد إلى الجزر الواقعة في مجال القارة الأميركيّة أو البرازيل، وعادت إلى الوطن محملة بالسكر. في عام ١٦٢١، تم دمج جميع الشركات الخاصة التي تتداول في الغرب ضمن شركة «الهند الغربية الهولندية»، التي أرسلت في غضون أربع سنوات خمسة عشر ألفًا وأربعمائة وثلاثين زنجيًا إلى البرازيل لتزويد المزارع الإنكليزية. وهكذا أصبحت هولندا توصف بـ«ناقلة الرقيق العظيمة». وفي الوقت نفسه شُنت حرب ضد إسبانيا.

بدأت التجارة الإنكليزية برحلات السير جون هوكينز في عام ١٥٦٢ وما بعده، وكان دور الإنكليز أولًا: الحفاظ على إرث التجارة الهولنديّة والبرتغاليّة والإسبانيّة حتى منتصف القرن السابع عشر، وثانيًا: قاموا ببناء شركات تجارة الرقيق الإنكليزية وتشكيل الشبكة العالميّة والمنظّمة. هكذا يختم دو بويس مراحل تكوّن المنظومة عبر تحديد الأدوار المختلفة للأوروبيين، من إسبانيا حينما أطلقت التجارة ونقل السود إلى إسبانيا لمصالح خاصّة وخدمة العائلة الملكيّة، ثمّ البرتغاليين عبر استعباد واستهداف السود بصفتهم «سلعة»، ثمّ إنشاء مؤسسات وأجسام تُدير السلعة من قِبل الهولنديين، وأخيرًا قامت إنكلترا ببناء شبكة شركات إنكليزيّة عاليّة منظمّة لتجارة الرقيق.

حينما سيطرت إنكلترا على منطقةِ جامايكا في عام ١٦٥٥، وأنشأت «القاعدة الغربيّة الهنديّة لتجارة الرجال»، حفّزت هذهِ الحادثة استثمار «مغامرون ملكيون بريطانيون» في تجارة الرقيق في عام ١٦٦٢، وتأسست شركة «رويال أفريكان»، التي أصبحت أكبر شركة لتجارة الرقيق في العالم، واستمرت في التجارة المتنامية مدة ربع قرن.

في عام ١٧١٣ وقّعت إنكلترا وإسبانيا اتفاقًا من أجل ترتيب تجارة الرقيق العالميّة، وهو يقتضي مزيدًا من الامتيازات والمنح للجانبِ الإنكليزي وفرضِ هيمنة واحتكار على التجارة. وقد حصد تجّار الرقيق «محصولًا كبيرًا» من هذه الاتفاقية. تركّزت التجارة في ليفربول، وتأسست عظمتها التجارية إلى حدّ كبير على هذا الأساس. تسارعت تجارة الرقيق في القرن الثامن عشر وبلغت أرقامًا مهولة؛ ٥٣ سفينة في عام ١٧٥١؛ ٨٦ في عام ١٧٦٥، وفي بداية القرن التاسع عشر ١٨٥، حملت ما يقارب تسعة وأربعين ألفًا ومائتين وثلاثة عشر عبدًا في عام واحد.[١٢]

ويشير دو بويس إلى أن توفير مثل هذا العدد الكبير من السفن وملايين من العبيد احتاج إلى شنّ غارات وحرب ممنهجة على الشعوب والقبائل السوداء في جميع إفريقيا، على إثرها تحوّلت القارّة رأسًا على عقب؛ إخلاء مناطق بأكملها، اختفاء قبائل بأكملها، وبناء قرى في الغابات والكهوف هربًا من الغزو الاستعماري. وبالمقابل، تشكّلت شخصية قاسية وعنيفة ومقاومة في إفريقيا. ويذكر دو بويس على سبيل المثال أن منطقة البنين شهدت «أسوأ تجاوزاتها في القسوة بدلاً من فنون السلام المزدهرة بالفعل» نتيجة الحاجة إلى الدفاع عن ذاتها وأرضها.[١٣]

وبالتالي أصبحت إفريقيا بعيدة عن إمكانات التقدم واستكمال مشروعها الحضاريّ. وبالإضافة، إلى الطلب الهائل على العبيد ونقلهم من الساحل الغربي، تدفقت قوافل العبيد عبر الصحراء إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط وأسفل وادي النيل إلى مراكز الإسلام كجُزء من الشبكة العالميّة التي صاغتها بريطانيا في القرن التاسع عشر تحديدًا. ويصف دو بويس هذهِ العمليّة التاريخيّة بأنها كانت«اغتصابًا لقارة إلى حدّ لم يسبق له مثيل في العصور القديمة أو الحديثة».[١٤]

ختامًا: الفاعليّة التاريخيّة والعرق واللون

يحاول دو بويس في كتابهِ «الزنجيّ» استيعاب تاريخ إفريقيا كاملًا، وصياغتهِ ضمن مقولة الفاعليّة التاريخيّة للشعوبِ السوداء (والملوّنة عمومًا)، وبالتالي ناقشَ فترتين متباعدتين نحو عشرة قرون. ونجد أن كتابته التي انطلقت من تاريخٍ عريق وقديم لحضارة مزدهرة إفريقية، وتصل نقاطا ومواقع ومراكز من أجل فهم حقيقة الفعل الإفريقي تاريخيًا، وفقًا لتخطيط جغرافي حضاري يرسمهُ دو بويس لإفريقيا، أصبحت نموذجًا في دحض الإنتاج المعرفيّ الأوروبيّ، والفلسفةِ الحديثة، التي يعرّفها على أنها «الطفل الذي أنجبتهُ تجارة الرقيق الإفريقية وتوسع أوروبا الاستعماري خلال القرن التاسع عشر».[١٥]

ونجد أن النموذج الذي أطلقهُ دو بويس في هذا الكتاب تحديدًا وكتاباتهِ عمومًا، حفّزت مدارس فكريّة عند الملوّنين وغير الأوروبيين، وأذكر على سبيل المثال المدرسة الأميركيّة الجنوبيّة، وأخصّ الفلاسفة إنريكي دوسيل وكاسترو جوميز ورامون غروسفوغل في نقدهم للفلسفةِ الأوروبيّة الحديثة وعلاقتها بالغزو والاستعمار والإمبرياليّة. كان نقدَهم موجهًا إلى البنية الاجتماعيّة الاستعماريّة التي أنتجت فلسفة أوروبيّة تتأسس على العنصريّة والتقسيمات العرقيّة والتفوّق الأبيض. ويوضّح غروسفوغل متحدثًا عن النقد الذي وجهتهُ المدرسة الأميركيّة الجنوبيّة لدور ديكارت التأسيسيّ في الفلسفة الحديثة، على أن مقولة «أنا أفكّر، إذًا أنا موجود» هي حصيلة ١٥٠ عاما من الممارسات الأوروبيّة في الهيمنة والاستعمار والغزو. وعليهِ، مضمون هذهِ المقولة الفلسفيّة هو «أنا أغزو، إذًا أنا موجود».[١٦]

وعليه، فإن نقد سوسيولوجيا المعرفة وإنتاجها، وصياغةِ معرفة بديلة تكشف عن الاضطهاد المعرفيّ الذي تمارسهُ الدول الاستعماريّة الأوروبيّة ضدّ الشعوب الملوّنة في الأميركتيّن وإفريقيا وآسيا وأستراليا والجزر عمومًا والإثنيات الصغيرة في أوروبا ذاتها، وتحاول أيضًا بناء سرديّات وتخطيطات تاريخيّة تحقّق وجودها وإمكانيات واحتمالات بناء تاريخ ومستقبل آخر. ويشدّد دو بويس في كتابهِ دائمًا على احتمالات التحرّر والفاعليّة للشعوب والقبائل السوداء، حتى في أحلك الظروف والشروط الصعبة. ويذكر المقاومات المتعددة والمعارك التي أطلقها الأفارقة ضد الأوروبيين، وخاصّة موجات عديدة من الثورات في القرن التاسع عشر، سواء في المستعمرات أو في إفريقيا.[١٧]

المحاولة الدائمة لإنشاء فاعليّة تاريخيّة راهنة عندَ الشعوب السوداء والملوّنة، مرتبطة عند دو بويس بالماضي والحاضر وبتشابك معاناة الحاضر واحتمالات الماضي. بالتالي أراد دو بويس أن يحيي في كتاباتهِ حضارات مستهدفة وتاريخًا مكتومًا، من قبل الأجهزة والمؤسسات الأكاديميّة والمعرفيّة الأورو-أميركيّة، من أجل بناء ذوات سوداء متحرّرة من الاستعمار.

الهوامش

1 Du Bois, W. E. B. (William Edward Burghardt), *The souls of black folk; essays and sketches*. (Chicago, A. G. McClurg, 1903). New York: Johnson Reprint Corp.

2 Du Bois, W.E.B., *The Negro*. (New York: Holt, 1915). Published Electronically on Project Gutenberg in 2011. Pp 29-

3 O. Adegbindin, «Critical notes on Hegel's treatment of Africa». *OGIRISI: a New Journal of African Studies,* 11/ 20 (2015).
Julie Ward, (2016). The Roots of Modern Racism: Early Modern Philosophers on Race. The Critique, Fall 2016.
https://www.researchgate.net/publication/317623852_The_Roots_of_Modern_Racism_Early_Modern_Philosophers_on_Race

4 Du Bois, W.E.B., *The Negro*,..Pp 29-

5 Du Bois, W.E.B., *The Negro*,.. Pp 915-

6 Du Bois, W.E.B., The Negro,.. Pp 1527-

7 Du Bois, W.E.B., The Negro,.. Pp 2740-

8 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 40

9 Du Bois, W.E.B., The Negro, ..Pp 8890-

10 Du Bois, W.E.B., The Negro,.. Pp 90

11 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 92

12 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 9988-

13 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 96

14 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 96

15 Du Bois, W.E.B., The Negro,..Pp 145

16 Ramon Grosfoguel, «Decolonizing Post-Colonial Studies and Paradigms of Political-Economy: Transmodernity, Decolonial Thinking, and Global Coloniality». *TRANSMODERNITY: Journal of Peripheral Cultural Production of the Luso-Hispanic World*, 1(1) (2011).
https://escholarship.org/uc/item/21k6t3fq#article_main

17 Ramon Grosfoguel,..(2011), Pp 105100-